اصل اللفظة . والاّ فسائر امهات اللغة ودواوينها القديمة لا تذكرها

(دوسيه) المستعمل في العراق في هذا المعنى « الاضبارة » وقد جاءت بهذا المعنى في كتب العرب. واما « ملف » فلا تؤدي هذا المؤدى الاّ ببعض تكلف

هذا ما بدا لنا وهو فوق كل علم عليم

(بغداد) سائسنا

حالة آداب العرب

في عصر الجاهلية وعلى عهد الخلفاء

اقترحنا على الادباء في الجزء الاول من « الزهور » كتابة نبذة عن « الوسائل الواجب اتخاذها لترقية اللغة العربية » بعد ايراد لمحة وجيزة فيما كانت عليه ايام الجاهلية وعلى عهد الخلفاء . فاستحن الموضوع كثيرون ، ولكن الذين حاولوا الكتابة فيه كانوا قليلين ، لانه يقتضي بحثاً وتدقيقاً عظيمين . وكان المجلي في هذا الميدان حضرة الباحث المدقق عيسى افندي اسكندر المعلوف ، فأفاد فيما كتب ، وأجاد فيما اقترح ، وها اننا ننشر اليوم مقدمته عما كانت عليه اداب العرب في عصر الجاهلية وعلى عهد الخلفاء مرجئين القسم الثاني ، وهو ما يجب اتخاذه من الوسائل لترقية تلك الآداب الى العدد الآتي :

العرب من القبائل السامية التي انتشرت في شبه الجزيرة المنتسبة اليهم ، وقد بقوا سحابة عصور طويلة بلا كتابة فحفظت آثارهم باشعارهم ورواتهم ، وعُرفوا بفرعين عظيمين البائد والباقي : فالقبائل البائدة طمست آثارها كعاد وثمود وطسم وجديس ممن اقاموا في عمان والبحرين واليمامة

واشتهر منهم لقمان الحكيم صاحب الامثال التي يقال ان اصلها من الشعر المقفّى ولغتها حِمْيَرية . والقبائل الباقية هي بنو قحطان وبنو عدنان ويعرفون بالعرب العاربة وكانت كتابتهم الحميرية او القلم المسند القديم انتشرت في اليمن فكانت لغة القبائل البادية وعرفت بلغة قحطان وقد وجدت آثارها في جبل الصفا في حوران وفي مأرب (اليمن) وحروفها منفصلة ولما اعتمد الاسلام على لغة قريش العدنانية تغلبت على اللغات الاخرى وأماتتها . واللغات السبع المشهورة بالفصاحة في العرب العرباء هي : لغة قريش وهذيل وهوازن واليمن وطيّ وثقيف وبني تميم . ومن القلم الحِمْيَري اشتق الكوفي ثم النسخي وفروعه الى عهدنا

وكانت نهضة العرب قبل الاسلام بنحو قرن اي في اثناء القرن السادس للميلاد ولقد رقاهم احتكاكهم بالحبشة والفرس والروم من مناوئيهم

وكان الشعر في اول أمره عندهم مقاطيع وارجازاً فقصَّده المهلهل ، وأول من اطال الرجز وقصَّده الاغلب العجلي بزمن النبي (صلعم) ثم العجاج . وسئل ابو عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ فقال نعم ليسمع عنها . قيل وهل كانت توجز؟ فقال نعم ليُحفظ عنها ... ومن اقدم اشعارهم احتضار جدهم يعرب بن قحطان ، ومنظومات الحارث بن مضاض الاصغر الجرهمي وشدّاد بن عاد ، وعاد بن عوض وثمود بن عابر وزرقاء اليمامة وربيعة بن نزار والزباء وعامر بن حليس والمرقش الاصغر الى أن نبغ اصحاب المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثي والمثوبات والملحمات فكانت المعلقات من الطبقة الاولى وما يليها من الثانية الخ

وكان شعرهم في الجاهلية طبيعياً ، وصفوا فيه الظواهر الجوية ، ومحاسن الاخلاق والعادات ، ومنهم من احب الروية ومنهم من فضل البداهة ، وكان مذهبهم الشعري صحيحاً يتجنبون فيه السرقة والكذب . وقال الاصبهاني في الاغاني : ان موضع شعراء الجاهلية واحد من البلاغة الاَّ انه غلب على ذي القروح (امرىء القيس) التجمُّل بالمعاني وبديع الوصف ، وعلى النابغة الاسترسال في البراعة ، وعلى زُهير العناية بتقويم الالفاظ . وانفرد من هم دون طبقتهم باشياء مثل ابي دؤاد بوصف الخيل ، وعلقمة بوصف الوحش ، وأوس بن حَجَر بوصف الخمر ، الى غير ذلك مما اكثرت من امثلته في كتابي (الطرف الادبية في تاريخ اللغة العربية)

ومن خطبائهم المشهورين عبد شمس الملقب بسبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقس بن ساعدة الايادي اسقف نجران ، وسحبان وائل الباهلي ، وكعب بن لؤي بن غالب ، وعامر بن الظرب العدواني ، واكثم بن صيفي وعبد المطلب بن هاشم جد النبي (صلعم) وغيرهم

وعقدوا لهم اسواقاً لتناشد الاشعار والقاء الخطب والمباحثة والمهاجدة اهمها سوق عكاظ . ولم يعرفوا من العلوم الاَّ نتفاً من النجامة ومن التاريخ ولا سيما الانساب ، ونبغ بينهم تراجمة عرفوا اللغات الاعجمية مثل زيد بن حماد المنتهي نسبه الى زيد مناة الذي تقرب من الاكاسرة واقطعوه قطائع وولده عدي بن زيد وغيرهما

ثم صارت الخلافة الاسلامية الى الخلفاء الراشدين منهم فنبغ رأسهم النبي بالخطابة والقول الفصل وهكذا اخلافه وصحابته وعرفت الكتابة في

هذا العهد ، وتحضرت العرب وكان الشعر على منوال الجاهلي ولكنهُ أُدخلت فيه صناعة المديح والالفاظ الدينية فنبغ فيه الشعراء المخضرمون كعبدالله ابن رواحة ومالك بن نويرة والعباس بن مرداس وكعب بن زهير وحسان ابن ثابت الانصاري والخنساء ، ثم الشعراء المسلمون مثل عمرو بن معدي كرب الزبيدي والنمر بن تولب التغلبي وأبي ذؤيب الهذلي والنابغة الجعدي وغيرهم . وكان للخلفاء اشعار وتواقيع وخطب ورسائل بليغة ، ووضع ابو الاسود الدؤلي علم النحو باشارة الامام علي بن ابي طالب الى غير ذلك

ثم جاءت الخلافة الاموية فوضعت النقط والحركات . وكان الشعر عليه مسحة من صبغة الجاهلية ولكنهُ مال الى الحضارة والتبسط بالمدح والاطراء فنبغ فيه القطامي النصراني وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت بن زيد وابن خماعة وليلى الاخيلية واشهرهم ثلاثة الفرزدق وجرير والاخطل النصراني . واشتهر من خطبائهم اياس بن معاوية وزياد ابن ابيه وابن القرية الهلالي وخالد بن صفوان التميمي ونحوهم

اما الكتابة فقد حوّلت في هذا العصر الى العربية في الدواوين ، بعد ان كانت بالاعجمية في الشام ومصر والعراق . وكبير كتّاب هذا العصر عبد الحميد كاتب مروان الجعدي واليه ينسب وضع آداب هذا الفن . وكان للخلفاء من الحِكَم والاقوال المأثورة ما يأخذ بمجامع القلوب بلاغة

واشتهر عندهم علم الانساب ، ومن اكبر رواتهم حماد الطائي . وعرف الغناء عن الفرس . والفقه والطب وبنيت المستشفيات وعرّبت المصنفات الاعجمية من طبية وكيماوية الى غير ذلك

اما العصر الذهبي للعربية فهو عصر العباسيين من سنة ٧٥٠ م — ١٢٥٨ م وقد قسمته في كتابي (الطرف الادبية) الى نهضتين نهضة المشرق ونهضة المغرب . فازهرت في المشرق بغداد والبصرة وبخارى ودمشق والقاهرة والاسكندرية بالعلوم والآداب واشتهر خلفاؤهُ بمعاضدة العلم ولا سيما هرون الرشيد وولده المأمون ، حتى قال بعض المستشرقين : ان هرون كان يستصحب في سفراته مائة عالم . ولقب أوغسطس اللغة العربية حتى لقد اهدى القيصر نيقيفور الى الرشيد كتباً كثيرة عربية . ولما كتب المأمون المعاهدة بينهُ وبين ميخائيل الثالث امبراطور القسطنطينية على اثر الحرب المشهورة بينهما كان من جملة شروطها أن يرسل اليه الكتب النادرة الثمينة فارسلها وعرّبت . وكان في بغداد « ديوان الترجمة » للتعريب و « بيت الحكمة » للمطالعة . وكان العلماء يتسابقون الى خدمة الخلفاء ويرحلون في طلب العلم وقراءة الكتب على مؤلفيها أو طلبتهم ويأخذون إجازات بما اتقنوه منها . وأزهرت في المغرب قرطبة واشبيلية وغرناطة وبلنسية وصقلية وفاس ومراكش والقيروان ولا سيما بمعاضدة الخلفاء اخصهم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكَم المستنصر . وكانوا ينافسون المشرق بترقية المعارف حتى ان الحكم الثاني الاندلسي اشتهر باستنساخ الكتب ، فأرسل الف دينار الى ابي الفرج الاصبهاني ثمن اول نسخة من الاغاني ، ليظهرهُ في الاندلس قبل ظهوره في المشرق فقرىء فيها قبله . وقد حمله مؤلفه الى سيف الدولة بن حمدان فلم يعطهِ اكثر من الف دينار فاستنزرها الصاحب بن عبَّاد لانه كان يُكبر الكتاب

وهكذا تبارت الدولتان الشرقية والغربية بتعريب الكتب العلمية وتعزيز المكاتب وتشييد المدارس وتقريب العلماء والمترجمين والشعراء . وكان معظم الاطباء المعربين في المشرق من النساطرة المسيحيين وفي الاندلس من الاسرائيليين . وكانت المدرسة المستنصرية في بغداد وكلية قرطبة والقيروان مباءة للعلماء

فوضع في المشرق فنّ العروض والقوافي ، وضعه الخليل بن احمد الفراهيدي . واشتهر سيبويه بالنحو والاصمعي بالرواية واسحق الموصلي وولده ابرهيم بالغناء وابو نؤاس وابو العتاهية والمعرّي وديك الجن بالشعر . واشهر شعراء هذا العصر ثلاثة المتنبيء وابو تمام والبحتري كما فصّل ذلك ابن الاثير في مثله السائر

ووُضع في المغرب فنّ الموشحات المنسوب الى مقدم بن معافر الغريري واخذ عنه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وغيره فاشتهر من شعراء المغرب ابن خفاجة وابن هانيء وابن حمديس وابن سهل وابن عمار وابن وهبون وابن صارة وابن رضوان وحفصة بنت حمدون والرميكية وابنتها بثينة وابن باجة وابن بقي وابن زهر وغيرهم

وعلى الجملة فقد كان الاندلسيون نحو ثمانية قرون اساتذة للاوربيين ، ونبغ من ادباء ملوكهم المعتضد بالله العبادي وولده المعتمد وغيرهما ولهم شعر رائق

ومن مشاهير كتاب المغرب ابن عبد البر وابن الابار وابن رشيق وابن زيدون وابن زمرك وابن ابي رندقة الطرطوشيّ وعائشة بنت احمد

واسماء العامرية والشلبية وغيرهم

ومن فلاسفة الشرقيين ابن سينا ، والفارابي والرازي ومن الغربيين ابن رشد وابن الطُفيل وغيرهما من كبار الاطباء والعلماء ممن لا محل لاستيفاء تراجمهم الآن

ولقد نالت العربية في عصر الدولتين الشرقية والغربية مجدها وامتدت آدابها مع غزوات أهلها في القارات الثلاث آسيا وافريقية واوربا ، ومعظم اوربا التي بسط العرب عليها جناح سطوتهم اسبانيا وصقلية.وايطاليا الجنوبية

واقتبس الاوربيون عن العرب العلوم مثل البابا سيلبسترس الثاني (جيربرت) وفريدريك الثاني امبراطور المانيا والبرت الكبير وغيرهم

ولقد سمي هذا العصر بالعباسي تغليباً مع ان دولاً كثيرة نشأت في اثنائه مثل دولة بني حمدان في حلب ، وبني بويه في فارس ، وبني ساسان في ما وراء النهر ، والفاطمية في مصر ، والاموية في الاندلس . وقامت في تلك الاثناء الدولة السلجوقية فشيدت المدرسة النظامية في بغداد ، واقامت المستشفيات والمراصد . وشيد الفاطميون بمصر دار الحكمة للعلوم ومكتبة كبيرة . ثم جاءت الدولة الايوبية على عقب الفاطمية فشيدت المدارس في بغداد وحلب والمستشفياب في مصر والمراصد في دمشق وغيرها وكانت رغبات الشعب في العلم ومساعدات الحكومة هي الباعث الاكبر على النجاح

ثم غُلِبت الامة العربية على المُلك في القرون المتأخرة فكثرت غزوات الصليبيين والترك والتر حتى تأخرت لغتهم بمزاحمة لغة الفاتحين لها وذلك من سنة ١٢٥٨ م الى اوائل القرن التاسع عشر . ومع ذلك فقد نبغ في هذا

العصر المتأخر شعراء من أشهرهم ابن العفيف التلمساني وصفي الدين الحلي وابن الوردي وابن نباتة وابن النحاس وابن معتوق والنابلسي والشيخ احمد البربير ومن المسيحيين المطران سليمان الغزي والمطران جرمانوس فرحات والخوري نقولا الصائغ وغيرهم

ومن الكتاب ابن خلدون المغربي وابن جزي الغرناطي . ومن المؤلفين كثير لا محل لاستيفائهم وحسبنا ان نشير اليهم ففي العلوم اللسانية ابن مالك الاندلسي صاحب الالفية وابن عقيل والاشموني شارحاها والصبان محشيّها . وفي العلوم البيانية واللغوية جلال الدين السيوطي الذي الف في جميع الفنون العربية ، والخفاجي صاحب طراز المجالس وشفاء الغليل وشرح درة الغواص . وابن منظور صاحب لسان العرب والفيروز بادي صاحب القاموس والزبيدي صاحب تاج العروس

وفي التاريخ والجغرافيـة والرحلة ابو الفداء وابن جبير وابن بطوطة والحسن القرطبي المعروف بالاسد الافريقي . وياقوت صاحب معجم البلدان والمقريزي والمسعودي ومن النصارى ابن العبري وابن الفضل الانطاكي والسمعاني والدويهي والبطريرك مكاريوس الحلبي المعروف بابن الزعيم وولده الارشديا كون بولس وغيرهم . وفي الرياضيات ابن الهائم وابو بكر الجمّال المصري وغيرهم . ومما امتاز به هذا العصر اختراع المطبعة فكان للعربية نصيب منهـا في اوربا فطبعت بحروفها كتب كثيرة في ايطاليا وفرنسا وانكلترا والاستانة وحلب ولبنان ومالطة الخ

ولما تنفس القرن التاسع عشر انتشرت بيننا الطباعة فاعتزت بها

آداب العربية ونبغ كثير من المؤلفين والعلماء والمعرّبين فنشروا لنا من المؤلفات ما هو جدير بالمطالعة وان كانت لا تزال قاصرة عن حاجاتنا فان فيها دليلاً على نهضتنا وكفى بجرائد المهجر في اميركا الشمالية والجنوبية ومطابعه ومؤلفاته شاهداً عدلاً على أن العربية جدّدت شبابها واستعادت نهضتها . فماذا يجب اتخاذه لترقية آداب هذه اللغة ؟ (هذا ما نراه في الجزء الثاني)

عيسى اسكندر المعلوف

في جنائن الغرب

﴿ العزلة ﴾

طالما كنتُ اجلسُ في الجبل تحت ظل شجرةٍ من بلوط ، وقد خيَّم الحزن على صدري ، فكنتُ أسرّحُ الناظرَ في السهول التي نشرت امامي احاسن محاسنها يتلو بعضها البعض وقد اخذت زخرفها وأزينت وانبتت من كل زوج بهيج ، وقد آذنت ذُكاء بالغروب مرتدية حلتها الصفراء تعلوها الكآبة . ولا ادري ان كان ما ألمّ بها توجعاً ورحمةً لي ، او من ألم البين والفراق

امامي النهرُ يُزمجر بامواجه الزاخرة المزبدة ، وينسابُ كالافعى وسط الرياض ، وهناك البحيرة الساكنة كالمرآة الصقيلة . وقد ارتسم كوكب المساء على صفحات الماء . وكانت الجبالُ التي تحوطني متوجة بغابات قاتمة رمى عليها الشفق اشعته الاخيرة